



الرصائف والروائق السميت الرضي، والسبك البهي

تأليف: خالد إبراهيم المحجوب

جمع وإعداد

أبو عمار الأزهر عيسوي



الرَّصَائِفُ وَالرَّوَائِقُ
السَّمْتُ الرَّضِيُّ، وَالسَّبْكُ الْبَهِيُّ.

كتبه

خالد إبراهيم المحجوبي.

الطبعة الأولى

1445هـ/2023م.

أُخرجَه واعتنى به

أبو عمار الأزهر بن عمار عيساوي



الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

يسمح بالنقل والنسخ للأغراض العلمية



الرَّصَائِفُ وَالرَّوَائِقُ
السَّمْتُ الرِّضِيُّ، وَالسَّبْكُ الْبَهِيُّ

خالد إبراهيم المحجوبي

1444 هـ / 2023 م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَيْهِ الْبَيَانُ﴾



تقريظ الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

((الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فقد بعث إلي الأستاذ الأديب الكبير خالد إبراهيم المحجوبي بمسودة كتابه الجديد الذي سماه بـ (الرصائف والروائق / السمت الرضي والسبك البهي). وشرعت أقرأ الكتاب؛ فوجدته كمثّل باقة أزهار جمعت فيها ألوان الزهور، أو كالسلة وضعت فيها أصناف الفواكه والأثمار اليانعة، لكل منها رائحته وطعمه، والكل لذيذ شهّي.

وليس هذا مما يثير العجب، فإنه صدر من يراعة عالم تملّك ناصية الأدب، وحلب أشطر العربية، ولا يزال يكتب للقراء المتعطشين ما ينقع غلتهم، ويسد حاجتهم في مؤلفاته الثمينة.

والكتاب كما علمته من خلال محتوياته يتسم بالصياغة الأدبية القديمة الأصيلة والخصوبة والتنوع، والقدرة على الوصف. على شاكلة الحريري، والهمذاني.

والكتاب مجموعة خواطر جادت بها قريحة أديب راسخ لا يزُلُّ، ولا ينحرف، وصير في حاذق، كأن كلماته دنائير مصقولة، ينفث من خلالها السحر الحلال، فقد حشد في كتابه أطيب الثمار، وأحلى الأزاهير، وأغنى الجواهر. أسلوبه ممتع شيق؛ لأصالته وقوة تركيبه، وتجانس مقاطعه، وحلاوة ألفاظه، وقد بلغ فيه شأواً لا يُبارى، يعز على الكثيرين بلوغه.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا به وبعلمه، وبارك في عمره وعلمه.

وهو المستعان وعليه التكلان)).



كتبه: محمد حيّان بك القاسمي

أستاذ الأدب العربي بجامعة (مظاهر علوم) سهارنفور/ الهند



بسم الله الرحمن الرحيم

(كتابكم هذا... أقسم بالله وأشهد به بأنه على درجة من البيان عظيمة، احتلّني مفرداته. بارك الله لك. أيّ بلاغة هذه، وأيّ قُدرة على الربط والرصف. لم أره في زماننا هذا.. على اطلاعي النّهم. لقد فاق كتب الكثير، لدرجة أني وجدته أرفع من كتابات ابن القيم. لدرجة أنني عاهدت نفسي على حفظه عن ظهر قلب. هذا الكتاب هو الذي يستحق لفظ الدر المكنون، كتابكم معجم قائم بذاته.

بارك الله لك، هذه منحة من الله لا يعلم عبء حملها الا من أجادها تقديرًا.

والله وهذا يمين غموس مغلظ، إن هذا الكتاب تحفة أدبية لم أر مثلها قط... مجامع الكلم، وحسن ترايب الألفاظ والمعاني، لا

يُدرج مسالكها إلا متمكن وضليع، وصاحب اطلاعٍ موسوعي
على شتى الثقافات... ولقد أرسلت كتابكم هذا لكثير من
أصحاب القدر من العلم فذهلوا منه...).

الأديبة الفلسطينية: رشا الهاشمي.

كتبته - في رسالة للمصنف -



بسم الله

((كان من فضل الله تعالى أن طالعتُ رسالة أبي تميم الدكتور
خالد بن إبراهيم المحجوبي - حجه الله عن كل سوء -
الموسومة ب(الرصائق والروائق، السميت البهي والسبك
الرضي) فألفيتها وجيزة الورقات، سامية النفحات، فاخرة
المبنى، رفيعة المعنى، حوتُ إشارات سديدة إلى خلائق الكبار.
شكر الله لأبي تميم ما كتبه، وجعله من صالح الأعمال الباقيات.
وكتب: (بليغ بن مطهر العطاب) ٧ / ٩ / ٢٠٢٣ م)).

المؤرخ والأديب اليمني:

بليغ بن مُطهر العطاب



الفاتحة

بِاللهِ أَتَأْيِدُ وَبِهِ أَغْتَنِى، وَبِنَبِيِّهِ أَتُسَدِّدُ، وَبِهِ أَهْتَدِى.

وَلِلّهِ الْحَمْدُ؛ فَعَلِيهِ اعْتِمَادِى، وَإِلَيْهِ انْقِيَادِى، وَبِهِ اعْتِدَادِى، وَلَهُ ارْتِيَادِى. كَاشَفَ كُرْبَتِى، وَقَابَلَ قُرْبَتِى، وَغَافَرَ حَوْبَتِى، وَفَاتَحَ تَوْبَتِى. مَنْ إِذَا غُلِّقَتِ الْأَبْوَابُ ظَلَّ بِأَبْهِ مُشْرَعًا، وَمَنْ إِذَا بَخَلَتْ الْأَجْوَادُ كَانَ جُودُهُ مَتْرَعًا. هُوَ مَنْ إِلَيْهِ تَوَقُّى، وَعَنْهُ التَّوَقُّى. وَمِنْهُ قُوَّتِى، وَبِهِ قُوَّتِى.

سَبِّحَانَ مَنْ إِذَا خَافَهُ النَّاسُ؛ فَزَعَوْا تَجَاهَهُ، وَإِذَا عَصَوْهُ؛ فَرَّوْا إِلَيْهِ، وَلَهُ الْفَضْلُ بِمَا كُتِمَ وَأَبْدِى، وَأَرَاخَ وَأَعْيَى، وَأَخْفَضَ وَأَعْلَى. أَمَّا بَعْدُ: فَلَقَدْ رَأَيْتُنِى أَكْتُبُ هَذَا الْمَسْطُورَ، فَأَضْرِبُ عَنْ بَعْضِ مَا أَكْتُبُ، وَأَسْتَبْدِلُ بِهِ مَا أَرَاهُ لِلْعَامَةِ أَقْرَبَ، وَأَدْنَى إِلَى فَهْمِهِمْ وَأَوْعَبَ. وَأَقُولُ لَعَلَّهُ يَكُونُ أَعْقَدَ فِي فَهْمِهِ عِنْدَ مَنْ يَقْرَؤُهُ، أَوْ يَكُونُ أَعْوَصَ فِي دَرْكِهِ عِنْدَ مَنْ يَطْلُبُهُ؛ فَيَكُونُ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنَ التَّخْفِيفِ وَالتَّدْمِثِ وَالتَّجْلِيَةِ، لَكِنْ لَا إِلَى حَدِّ النُّزُولِ إِلَى مَا لَا يَلِيقُ بِنَا مِنْ

منازل البيان، ومراتب اللسان، وقد اضطرت لاجتماع حواشٍ
سفلية لتفسير بعض ما قد يستبهم معناه على القارئ، وما ذاك
من رغبتى ولا فى مستحبى.

كل هذا رغم أنى حين اعتزمت كتابته - فى وإهلة أمرى - أزمعت
الاسترواح بالمعاني أحكمها، بأن أسرج الأولى؛ لتركبها
الأخرى، ثم على متن فرس البيان أرسلها، تجري ولا تلوي،
تعدو، ولا تكبو.

ثم رجعت بصري كرتين، فعلمت أنى إن انتهجت ذلك، فما أنا
إلا صائح فى فلاة، أو مصوت فى مفازة. فأنى لقومي - حاشا النزر
من خواصهم - أن يستملحوا ما ينسج على منوال أهل الفصاحة،
ويسبك على جديلة^(١) أرباب البلاغة. وبينهم وبين قومي بُعد
المشرقين، وبعد الصواب عن المئين، بعد أن خوت أخاوين
الخير بينهم، وأعجزها الحال أن تتماد. مقفرة من علم يُزينها،

^١ الجديلة هنا بمعنى الطريقة والحالة.



وأدب يُحسِّنُها، وفقه يجمِّلُها، وعقل يكَمِّلُها.⁽²⁾ وما الحال فينا
بأهون مما شكاه ابن قتيبة، ووصفه في مدخل كتابه أدب الكاتب،
حيث الخائب فاضل، والفاضل خائب.
وفي جِواءِ كهذه، أستذكر وأسترحمُ لأعلام البيان الحدثاء الذين
حفظوا للعربية هيبتها، وأثروا ساحتها، وزادوا عن شريف
حوزتها، كالمنفلوطي، كالرافعي، وأبي فهر، وأبي تراب
الظاهري⁽³⁾.

² - الأخوين جمع خوان، وهو ما يوضع عليه الطعام والشراب. وقد كُنيت به
عن العقل الذي خلا مما ذكرت مما يقوم مقام الأكل. فالخوان الفاقد لأصناف
الطعام، كالعقل الفاقد لأصناف العلوم، يظل خاوياً عاطلاً غير ذي جدوى.
وتتماد أي تصير تلك الأخونة موائد عامرة.

³ - عنيت: مصطفى صادق الرافعي (ت 1937م)، ومحمود محمد
شاكر (ت 1997م)، وأبا تراب الظاهري الهندي (ت 2002م).

اعلم- لا عِدْمَتِكَ- أن خير الكلام ما انبسط مِبداء معناه، وما انقبض مديد مبناه، حتى يصير احتمال تناول القارئ له، فوق احتمال لفظه إياه. وقتها يكون قد ركب متن البلاغة الأكبر، وتحقق له منها الحظُّ الأوفر، وتضوُّع له منها المسك الأذفر.

ولم يزل ذلك التجوُّز ديدني فيما أكتب، وهَجَّيرِي فيما أقول، اكتفاءً بالأصول، وانكفاءً عن الفضول، واقتفاءً لجدير التبليُّغ، واغتناءً به عن ذريع التوسُّع؛ فما ارتكبت الكلام توسعاً إلا أزرى بقسمات بهائه، وأفقر من قبسات جماله، وأفقر من لمحات كماله.

ولقد استتم رصفُ هذا المسطورِ عندي، بمعان شريفة رائقة، ومبان حسينة فائقة، تحنَّفتُ عن الرِّثَقِ، وتضمخَّتْ بالوَمَقِ.

فأسميتها (الرصائفُ و الروائق).



ولم تزل كلمات الالافظ الفصيح تسوع في مسارها الى قلوب السامعين، حتى اذا أثقلتها كثرة ضرائبها⁽⁴⁾، وتزاحم ضرائرها من فضول الكلام، انقطع سلسال سبيلها الى النفوس، وتعكر سوغان تبلغها الى القلوب؛ فكان مبلغ مسيرها وآخر مصيرها صماخ آذان السامعين. وأتعب به من مبلغ يشارك فيه نباح الكلاب، ونعيب الغراب.

لذلكم قالت العلماء "البلاغة الإيجاز". فبقدر ما يجاوز المنشئ حد الإيجاز، فإنه يدلف الى ساحة العي، وبذلك - وغيره - يماز البليغ الرفيع، عن الدعي الرقيق.

ولقد كان من وكدي انتهاض الذهن للوفاء بحق النصيح، وواجب الإرشاد، وفرض الإبانة، وحق التبليغ. مما استوجه عليّ تحقيق القدرة على الإفصاح عنه، والإيماض به، لمن يقرأ هذا المسطور، سواء قراءة متمقل بنظر، أو لامح بشر.

⁴ الضرائب هنا بمعنى الأشكال والأصناف المشابهة.

كما أن لولّد آدم قِسمان، لا يستتم تمام خلْقهم وعيشهم إلا بهما
وهما الروح والبدن، فإن البيان وكلام الناس قِسمان لا يستتم
البيان تأمُّ الوصف، بهيِّ الأثر إلا باجتماعهما، هما اللفظ
والمعنى.

فقد يحسن اللفظ وتترين كلماته وتراكيبه، وقتَ تحمّله معانيَ
باهتةَ الفحوى، أو ذاهبة الجدوى. كما قد يحسن المعنى،
ويشرف المحتوى، رغم وروده في تراكيب واهنة، وعبارات
شائهة. مثلُ هذا كمثل رجل نقي تقي، ابتلي بوجه دميم، وبدن
ذميم. ومثلُ الأول كرجل وسيم المحيّا، بديع الطلعة، ابتلي
بخلق كريه، وطبعٍ سميج.

ولا جرم أن خير ما يكتب الكاتب، ما جَمع من الطرفين خيرهما.
أعني ما حُسّن مظهره من كلمات حسينة الوقعة، وتراكيب بهية
الطلعة. ثم ما حُسّن مخبره من جميل المعاني، وشريف الأفكار.
ولا تسل عن عظيم أثر اجتماع ما حُسّن من الكنف والمُكتنف؛



فإن لاجتماعهما لذةً تسكر دون خمر، وتطرب دون زمر. لا
حرمك الله ذوقها. وقد قلتُ:

إذا ما استتمَّ القولُ مظهرَ رسمه ومخبرَ فحواه فذاك من البشرِ

كمثل البها في الوجه والجسم وفي القلب خير مع صلاح به
وارفٍ يسري

وإني أستمحك؛ أن تعفيني من ادعاء التواضع المصطنع،
والتطامن المتّضع؛ فما عاد للاصطناع عندي موضع. ودعني
أقول إن كتابي - الماكث بين أصابعك الآن - قد ضمّ من الحكم
جحافل، وهو في الصواب رافل، وسطوره بالجمال حوافل. لا
يعروه كدر، ولا يعتريه رنق. ذاك ما تبدّئ لي منه، فإن سَنَح لك
فيه غير ذلك، فأنت بالخيار بين أن تمخر عبا به، أو أن تغلق دونك
بابه.

كتبه / أبو تميم خالد بن إبراهيم المحجوبي





www.alukah.net



باعث كتابة المكتوب



www.alukah.net



باعث كتابة المكتوب

وقد سَنَح لي أن أكتب هذا الذي بين يديك، تنفيساً عن نفس
نَفْسي التي كادت تنظمر، وتفريجاً عن فطرتي التي أوشكت
تنفطر، وقلبي الذي كاد ينعصر؛ فإني قد ابتلاني الله - تعالى -
بالعيش في عصر طمّت العجمة على ألسنة أهله، وقطنت الفهاهة
أفواههم، فبهتت أساليب كلامهم، وشاھت أضراب بيانهم،
وتمكّثت الغُتمة بين شفاههم، فاكتنف العيُّ بيانهم، وطوى بين
جنبه لسانهم، بل افترش ونام بين أسنانهم.

وإني إذ أكتب هذا المسطور، لكأني أطلب فسيح براح البرّ، عن
كتيم زنيق الحضر.

كما قد زُيّن لي أن أكتب نكاية في جحافل الأقدام، الذين أعلم من
شأنهم ابتهاض ما قد يرونه مسطوراً هنا، وأتيقن من فعلهم
انتهاض كسيح الأفكار، وفسيح الإنكار، وضروب الاعتراض في



الغدوّ والإبكار. يكيدون ولا يفترون، وهم من كل حدب ينسلون.

ولعمر الله ليس ذاك بصادٍ إيّاي عن مَهيعِي الذي ارتضيته،
ومَسَلِكِي الذي ابتغيته، وصدديّ الذي اجتبيته، في اقتفاء أسلوب
أجدادي، أهل البيان، وأقيال البلاغة. فلستُ أرَضِي - من نفسي -
الارتصاف في أجناب أهل العقوق، والاصطفاف مع الخائرين
عن درك السموق، القانعين بالأدنى عن الذي هو أولى.

ولست بمعزل عن استبانة تشوّف أحباب العربية، وتشوّق
عشّاقها، إلى التبلّغ بما يشبع نَهْمَتهم إلى معشوقتهم الفصحى،
وصريح جمالها الذي تعتمّ بِدَکْسٍ من الرطانة طال أمده، وتغبّش
بعتمة طاغية اشتد سوادها. وما عاد في مكتوبات الأسلاف ما
يروى الغليل، فعاشق العربية، في عَوَزٍ إلى جرعات مشبعة من
بيان أجداده، وإلى طراوة في دفقات جمال البيان العربي، عوضاً
عمّا يتعلل به النهم الصادي، من سواف بدائع الكاتبين



الأقدمين، التي إن ارتوتُ بجرعات الإبداع، فإنها لم تحز -
غالباً- طراوته وجدّته التي يتغياها الحُداثاء.



حق العريّة



www.alukah.net



حَقُّ الْعَرَبِيَّةِ

ما احتقب لسان بشري من الشرف ما احتقبه اللسان العربي، وما شُرِّفَتْ لغةٌ - مَرَّ الْأَعْصَارُ - بمثل ما شُرِّفَتْ به العربية، بعدما اختارها الله تعالى لاكتناف أكمل كتبه، وآخر رسالاته، فبها بلغ القرآن إعجاز النظم والبيان، فاقترنت به واقترن بها؛ ليُكتب لها بهذا الاقتران، خلود الزمان.

وليس يحسن بمن أنس من روحها رواحاً، أو نشق من عبيرها شذئ فواحاً، أن يغمط حقها في أن يُركبها لسانه، ويُسكنها جَنَانَه. فإنها - وحقُّ الله - أنقى ما نطق البشر، وأبقى ما خُطَّ على ورق ونُقش على حجر، وأبهى ما سمعه ناطق وحَصِر، وأرقى ما صيغت به المعاني والفكر.

فما شهدت ألسنة العالمين نديداً يضارع براح مجالاتها، وغزير تصريفاتها، وعزيز تركيباتها، ودقيق دلالاتها، وحسين سماعاتها، وبديع قياساتها.



وبحسب لغة العرب عظمَةً، أنها إناء كلام رب العالمين، وإناء علوم العالمين، ممن مهّدوا سبل الحضارة، ومسارب العلم، بطبّه، وفلكه، وهندسته، وفكره، ولغته، وأدبه.

وإني إذ أسطرّ - ما تراه - بيراعتي، وأستوقد فيه براعتي، فهو مني نفثة صدر، وحاجة روح، وغرض فطرة، واستنفاس ذوق، واستطلاب مفرّج، واستجلاب مخرج، عن هاته الهُوءة، التي انحضج فيها ذوق أهل الزمان، وفهمهم، وبيانهم، ولسانهم.

هذا اللسان الذي تزوّج العُجمة سفاحاً؛ فولدت له شوائع الأغلاط، وشوانع الأساليب، وبشائع التعابير، وسمائج المكاتيب. حتى غدا - عندهم - حَسِينُ البيان حَسِيفاً، وكريم الكلام كسيفاً، وحرُّ المعاني عسيفاً، وشريف اللسان أسيفاً.

إنه مآل يستنطق الحجر، ويستحضر العبر، ويذر ذوى الغيرة حسارى، وذوى الهمة حيارى. فحقّ على كل ذي دين، ومروءة



أن يجعل من جهده نصيباً لنصرة ضعفها، ومن وقته حظاً لرأب
صدعها، إذ خذلها بنوها، وخانها أهلوها، وأزرى بشرفها ذووها.



بين الراغبين فى الفصحى والراغبين عنها



www.alukah.net



بين الراغبين في الفصحى والراغبين عنها

إني قد رأيتُ الناسَ أحدَ رجلين: الأولُ مقبلٌ على لسانِ قومه، يستعذبُ نطقه، ويستلذُّ سماعه، لا يحجبه عنه حجاب، ولا يصدّه عنده وَجَاجٌ^٥. والآخرُ زاهدٌ فيه، ذاهلٌ عنه، واهلٌ عنده، قد درِبَ دُرْبَةً جهلٍ بقدره، وَجَرَ نَجْرًا على هجره^(٦).

وإني لن أكتُمَ شماتي في من قرأ هذا- من خصوم الفصحى- فاستعصى عليه دركًا، واستقفل عليه فهمًا، واستثقل عليه حملاً، أنْ كان مصاعراً خدّه عن شرف كلام أجداده. ما دام ارتضى أنْ يمكثَ فذمًا، لا يجهد من جسده عينًا ولا فمًا، لاستدراك ما فاته من قويم كلام الأسلاف، واجتناب كُلوْم^(٧) كلام الأخلاف. أولئك المذنون ينكرون ما لا يحسنون، ويزدرون ما يجهلون، ويستقلُّون ما يفتقدون. وما ذاك منهم إلا استتاراً من

^٥ الوجاج الستر والحاجز.

^٦ درِبَ، وَجَرَ على الأمر تعوّد.

^٧ كُلوْم بمعنى جروح، جمع كَلَم. وهو الجرح ويجمع الكَلَم على كُلوْم وكِلَام.

جهل احتسّوه فانحبس في أوردتهم، وكسل اكتسوه؛ بديلاً
لأكتسيّتهم؛ فصار الجهل شعارهم، والكسل دثارهم. فاذمم بهما
من مُحْتَسِيٍّ ومُكْتَسِيٍّ.

كما أني لا أكتُم جَذَلي، ولا أكفُر غبطتي، ولا أستر فرحتي، بمن
قرأ هذا المسطور - من أهل الفصحى - فألفى فيه تروّحاً لروحه،
وتنفّساً لنفسه، وتبهُجاً لمهجته. فما غير هذا يُؤمل من سدنة
الفصحى المخلصين، وأحلاس أُنديتها المُخبّتين، وعُمّار أفنيّتها
المحسنين. ممن إذا سمعوا أصواتها قنّوا،^(٨) أو لمحو حروفها
رضوا.

وإني لأطمع في أن أجد لهذا المكتوب أثراً يحفز أحباب العربية
إلى نصره كيانه، وتمتين بيانه، وإنافة بنيانه، وشدّ أركانه. وما
ذاك منّا ومنهم بتفضّل ولا تكرّم، إنما هو واجب أثيل، وحق لها

^٨ أي رضوا. وقنى بمعنى رضي واكتفى، وقناه الله، وأفناه: أَرْضاهُ.

علينا أصيل، كحق الأم على ولدها. فإن لم يكن لها بناصر فقد
تحقق منه العقوق، وأضاع تفريطه الحقوق.



مواتاة العررية؁ وتنكب أهلهأ



مواتاة العربية، وتنكب أهلها

وليس يَعْرُبُ عن ذي حِجْرٍ أَنْ العاجز عن استعذاب لغة العرب؛
إنما ينبط عجزه عن تقصير منه، أو قصور فيه. لا عن تصلّب منها،
أو تعسّر فيها. وقد استقر لنا من وصفها، كونها مواتية لطالبها،
ومواطية لصاحبها. فلا نشوز^(٩) فيها عن مرور مريدها، ولا خَبار
فيها عند مسير طالبها.

ولقد نعلم أنهم يقولون إنما هي لغة درَسَ زمانُها، وحُسِرَ أوانُها،
وخَسِرَ رهانُها. وما ذاك منهم إلا برهانَ خسران، وأمارَةَ خذلان،
وهو منهم تَعْلَةٌ^(١٠)، هي فيهم علة، وتزَيّدُ^(١١) ألقى إلى قلة،
وأفضى إلى ذلة.

^٩ نشوز الأرض: ارتفاع فيها يفقدها صفة الاستواء.

^{١٠} ما يتعلل به، ويُشغل به.

^{١١} الزيادة بتكلف.



فما العربية إلا تلکم التي كان يتعاطاها آلاف الأعراب سليقة،
ويتبادلونها جبلةً، ويتبادلونها فطرة. دون تكلف، ولا تعسف، ولا
تأفف. فلا يتکي أحدُهم على غيره؛ ليشرح له، ولا يَرتکي⁽¹²⁾
على سواه ليفهمه. فما ينبزها نابز، إلا هو أحق أنوك، ولا يتهوّن
شرفها إلا متهوّك أهوك⁽¹³⁾.

وقد آثرت أن أكتب ولا أکتّم، وأن أسجل ولا أسجّن⁽¹⁴⁾. أكتبه
وقد مرّ عليّ حين من الدّهر لم أسطر فيه قطعة من كلام
الفصحى، مغتنيًا بالفصيحة دون ما علاها، تطامنًا مني إلى
أمزجة العوام، من دهماء الأنام، وإلى غلبة الحُكلة¹⁵، وسلطان
الرّكاكة الماکث في أذواق أكثر الناس، وما حفلت به جموعهم

¹² أركى إليه أي لجأ. وارتكى عليه أي اعتمد والتجأ.

¹³ تهوّك الرجل اضطرب في القول. والهوك الحمق. والأهوك والمتهوك
المتحير وهو نفسه الأهوج.

¹⁴ أسجّن أحبس وأحجز وأخفي.

¹⁵ العجمة وعدم وضوح الكلام، وتعني اللُّغة، والأحکل الأعجم من البهائم.

من مسيخ الروائق¹⁶، وكسيح الذوائق¹⁷، وما قابلت به تراث
الأجداد من نكير الجفوة، وثقيل الجسأة¹⁸، وقبيح النبوة¹⁹. وما
ذاك منهم إلا نوع عقوق، وإن كان الآباء فيه غبروا وانقرضوا، فلا
يخف وطؤه عن عقوق الحاضر للحاضر، والحَيِّ للحَيِّ.
كما قد أبهضني²⁰ ما طابت به نفوس القوم من رطانة الحُداث،
وفهاهة²¹ الدخلاء، وتهاته²² الثقلاء؛ حتى غدت لغة العرب فيهم
هَجينة، وهيبتها بينهم هَجيرة، وآمالها عندهم هَجيرة²³. وما كان

¹⁶ جمع رائقة وهي الخالصة الصافية.

¹⁷ تطلق على ما يتذوق به الإنسان الأشياء.

¹⁸ الجسوء والجسأة اليبوسة والصلابة والخشونة.

¹⁹ النبوة: بفتح النون، وسكون الباء، هي المرة من الارتفاع والاعتلاء.

²⁰ أبهض أي أثقل. والباهض الثقيل.

²¹ فه: زلّ أو نسي من عي، وتعني العجز عن الكلام.

²² التهاته: جمع تهتهة وهي التواء في اللسان مثل اللكنة.

²³ أي نائمة خامدة.



أغناهم عن استبدال الأدنى، بالذي هو خير، لولا ما وقر في
قلوبهم من ابتخاس ما ورثوا، وانتقاص ما وجدوا، مما أعجزهم
اتخاذهُ قُوةً تُقْتَنى، وأُسوةً تحتذى. وما الواحد من هؤلاء إلا
كغذوي لا حظَّ له في حليب أمه.²⁴

وليس يعزب عناً أن من موجعات الدهر أن صار كلُّ صاحبِ بيان
نبذاً، بين طفيليِّ الأدب، وصعاليك الكلام، أولئك الذين لا
يسنح لك بين قطعانهم إلا راحلةً، بين كلِّ مئة خاملة. ولا تكاد
ترى فيهم إلا خاطلاً⁽²⁵⁾ يحمل باطلاً، من ليس حمولته من
الأدب والعلم إلا كنْغبة طائر²⁶، من أجاجٍ فائر.
وما شأن واحدٍ في نوادي الأدب، ومجالس العلم، إلا
كنْغاشي²⁷ يطاول جبلاً، أو كفيل يسابق جملاً.

²⁴ - الغدوي هو الرضيع الذي لم يصب من حليب أمه.

²⁵ الخاطل: المخطئ.

²⁶ النغبة: أي ما يحمله الطائر بمنقاره من الماء.

²⁷ أي القصير قصراً مفرداً وهو ما يعرف في وقتنا بالقزم.



وكم قد رأينا منهم، من تكلف الجمال، فما حازه إلا بظاهر لُبسه،
ومن تكلف الفضل فما أدركه إلا بوافر أكله. ومن تكلف العلم؛
فما أدركه إلا في خالص وهمه. فقل لي - بربك - ماذا بقي لهم
مما يُدلون به في أنهار المعرفة، وآبار البيان. وقد تم فيهم الفقد
للجمال، والفضل، والعلم. بقدر ما تمّ فيهم الجمع للتكلف،
والقبح، والوهم.

ومن عجيب شأنهم، أنّ الفرد منهم لا يكفيه الترفع يبرزه، والغرور
يظهره، وقد علم العقلاء أن المترفع ما انتهج الاسترفاع عن
أترابه، والتّعالّي على أضرابه؛ إلا لنقص وجده في ذاته، أو لقصور
حرّك فيه مناغص، تُبدي لعين روحه ما لا تراه عين وجهه. فوجد
في التزيّد، والتّباهي، والتّعالّي، ستائر تُحبّب دونها الدواهي،
والدّواني، والمخازي، مما استوطن قلبه، واستبطن نفسه، حتى
انغرس في ذاته، فأينعت، وأثمرت. فبئس المغرس،
والمُغتَرس.



أَرَأَيْتَكَ دُحْرُوجَةَ الْجَعَلِ، يَدْهَدُهَا وَقَدْ اغْتَمَرَهَا الْغَبَارُ
الْمُوطُوءُ، فَمَا هِيَ - عِنْدِي - بِأَبْخَسَ مِنْهُمْ، وَلَا أَقْدَارَهُمْ بِأَشْرَفَ
مِنْهَا؛ ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾²⁸.

ورب رجال تبلغ بسوء أخلاقها، وسماجة طباعها، وخسة
نفوسها، ما يعجز عن دركه سائمات الدواب، وخائسات
الذئاب، وخائسات الذباب.⁽²⁹⁾

فما حق أضرارهم علينا، إلا ضرباً بالنعال، أو طعنًا بالنصال، أو
رميًا بالنبال. فما هم بأقل خطراً من عدو مقتحم، أو وباء مدلهم،
أو بلاء قد أَحَمَّ.³⁰



²⁸ الحج: 18

²⁹ -خاس خيساً فهو خائس، وهن خائسات. بمعنى الغدر. وخس يخس
خساسة وخسوسة، إذا هان وذلل وحقر، فهو خسيس وهن خائسات.
³⁰ -أحَمَّ الأمر حان أو انه. وقرب ودنا.



الشكوى من سوء خلائق البشر



الشكوى من سوء خلائق البشر

وليس بمُمكنة أحد - ممن يواطئ مذهبي - أزيد من أن يذيمَ إلى عصرنا أناسه، وأن يشكوَ إلى دهرنا جُلاسَه، ممن جعلوا مُكثنا بينهم كُمُكث السابِلة في ضيافة اللثام، لا بشاشة تُرى، ولا طعام يُقرى، ولا نوال يُرجى، ولا خيرَ يعطى، ولا فضل يحسب، ولا بشر يُرَقب. فالسوءُ أسرع إلى ظنونهم، والكيدُ أرسخ في فنونهم، والشرُّ ألصق بذقونهم.

وإنك لترى الواحد منهم إن حضرتَ بوافر فضلك لا يحسّ بك، وإن غبتَ لا يحسبُك. لكن إن هو احتاجك قد يعبدك، ثم لا يني من المديح يعبُّ لك.

صار من نكد الدنيا أن تُرُصَّك في مجموع أقوام هم أسرع إلى أذية غيرهم، منهم إلى منفعة أنفسهم.

إن أحدنا إذا شُخص بتمام بصره نحو بحر الحياة؛ سيلقى الناس فيه مواخر، ثم لهم فيه مصائر، فمنهم غريق، ومنهم ناجٍ، وفيهم



سابع، وفيهم هالك، ومن أشد ما يمضّ القلب من شأنهم أن تجد أكثرهم شاغلاً نفسه - حاريّ دهره - باحتفار زُبِيَّة⁽³¹⁾ يتصيد بها الأفاضل، أو اقتعاد قُفِيَّة⁽³²⁾؛ يترصد منها الأماثل. حتى إذا واثته من أحدهم غِرَّة؛ أَوْبَصَتْ نَارَه⁽³³⁾، وأشرعت أظفاره، وأجهرت أخطاره. فإن فشل دون ذلك، سلّ لسان القتات من قراب فمه، يخبّب، ويؤلب⁽³⁴⁾. ألا ساء ما يَزرُون. وإن عجز عن إيقاع الأذية بتلك الضحية؛ فهو بين أحد أمرين: إما أن تنفضح سريرته، وإما أن تنفقع مرارته. فاللهم لا تستر لأحدهم سريرة، ولا تحفظ له مرارة.

³¹ حفرة تحتفر؛ كميناً للإيقاع بالفريسة: تجمع على زُبِيٍّ. ومنه قول العرب "بلغ السيل الزبى".

³² القفية: حفرة تتخذ لترصد الصيدة.

³³ أظهرت لهيها.

³⁴ ألّب يؤلب أي أفسد، وحرّض.

وإن تكلف أحدهم الإكرام؛ حباك كُشراً مصطنعاً، لا يُمْتُ إلى قلبه بوشيجة، ولا يتأدَّى إلى نفسه بوليحة. ثم هم ألاءٍ يشيخون بوجوههم، ويهزون⁽³⁵⁾ ذوي الفضل بينهم، يُظاهرون عليهم بالعت والإيذاء، لا يرقبون فيهم إلاّ ولا ذمّة، ولا يتقون منهم سُبّةً ولا مذمة.

وإلى كل أولئك الصفات، أودينا بما شِيةَ منهم من الطباع، وما شِيعَ فيهم من الطمائع، وما تعتم عليهم من العلوم، وما تكدر لديهم من الفهوم. وما تأخر عنهم من الصواب، وما تقدم إليهم من الخراب، وما اعتلاهم من الصّخاب، يخالون أنهم تيجان ذوي الفضل، وما جاز قدر أحدهم دُحروجة الجعل.

ولقد نعلم أن مثل ذي الفضل بين الناس، كشریف احتوشه الطعام، أو ذهب استبطنه الرغام، أو مستحب بين الحرام.

وكم كان أبو الطيّب موفقاً في قوله:

³⁵ أي يدفعونهم، فالبهز الدفع بشدة.

وما أنا منهمُ بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
ولا غرو، أن سنة الحياة بهذا سارت، وأحداثها له اختارت،
فجارت، حتى صار الأصل في تصاريدها مساوقتها للمين،
ومصاحبتها للحيث، ومُصاحبتها للزيف، ومصاقبتها للعيث³⁶.
وليس يهون من ذا الحال المهيش، ويوهن الإضر البهيش، إلا
بقية من أفاضل الزمان، هم من القلة بمكان. يخطرون لمأماً
كسحاب صيف، أو أعاجل ضيف.
هم بلسم لقروح الأيام، ومقرضة لأنياب الأسقام، ومذهبة
لفظاظاة الأنام. هم آنية للصواب، ومواقد للحكمة، ومراصد
للتوفيق، ومحاضن للسداد، ومساند للرشاد.
وفي مثلهم قال الخليل الفرهودي:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَاتِ إِلَّا مُحَاوَرَةُ الرِّجَالِ ذَوِي
وَقَدْ كَانُوا إِذَا عُدُّوا قَلِيلاً فَقَدْ صَارُوا أَقَلَّ مِنَ الْقَلِيلِ

³⁶ العيث: مصدر عاف يعيث أي كره يكره.

وما أصدق قول الجاحظ:

يُطِيب العيشَ أنْ تلقىَ حكيماً غذاه العلم والنظر المصيب
فيكشف عنك حيرة كلِّ جهل وفضلُ العلم يعرفه الأريب
وليس يعزُّب عن أحدنا أن ذاكم الصنف الطيب هم في الناس
أمشاج، فبهم اختلطوا، وفي سوائهم خلطوا، لكنهم قلةٌ كغيوم
الأصياف. هم فينا أمائلٌ، كلهم عن الشر عائل، وخيرهم للعين
ماثل، وبرُّهم بيننا جائل، وعن الضير حائل.

ولقد نعلم أن الله حكمةً في اصطناعه الأخياf في صنعه، وبثه
الأوشاب في خلقه، وجعله الأضداد في أرضه. فما شيءٌ يبين حقَّ
ما فيه من فضل، إلا بوجود ضده أمامه، وسُنوح عكسه قدامه.
كالشر للخير، والسقم للعافية، والجهل للعلم. وفي هذا المعنى
قال أبو الطيب المتنبي عن أهل اللؤم:

ونذيمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تبين الأشياء

وصدق أبو تمام في قوله:

سُمِّجَتْ وَنَبَّهَنَا إِلَىٰ
وَقَوْلِ دَوْقَةِ الْمُنْبِجِي:

ضِدَانٌ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حَسَنًا وَالضِدَّ يَظْهَرُ حَسَنَهُ الضِدُّ
وَلَقَدْ صَحَّ عِنْدَ التَّحْقِيقِ فِي خِلَاقِ الْبَشَرِ، وَمِفَاتِشَةِ صُنُوفِهِمْ، أَنَّ
الْإِنْسَانَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ، هُوَ أَصْدَقُ كَشْفًا عَنْهُ مِنْ سَائِرِ
جَوَارِحِهِ وَأَرْكَانِهِ. فِيهِ تَكْشِفُ دَوَاحِلِ النُّفُوسِ، وَبِهِ يَسْتَبِينُ حَاقُّ
قُدْرِهِ، وَيَمَّازُ صَالِحُ شَأْنِهِ عَنْ طَالِحِ أَمْرِهِ. إِذْ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ إِدْرَاكِ
مَكْتُومِ الضَّمَائِرِ، وَمَغْيِبِ الْقُلُوبِ إِلَّا بِمَا يَسْنَحُ مِنْ فَلَاتِ اللِّسَانِ،
وَمَخْرَجَاتِ الْأَسْنَانِ. وَمَا الْقُلُوبُ إِلَّا أَكْنَانٌ مَغْيِيَةُ الْفَحْوَى، فَمَا
يَدْرِي مَا فِيهَا انْطَوَى، إِلَّا عَالَمُ السِّرِّ وَالنَّجْوَى.



فضيلة العزلة



www.alukah.net



فضيلة العزلة

إنك ما دمت اخترت ولوج غمار الناس، والمَخَر في عُبَابِهِمْ، فلا نُدْحَة لك عن معروف تناله، أو منكر ينالك. وإن كان الآخر منهما هو الغالب عليهما، غلبة تجعل الأول في عداد النواذر. ولقد بلّوت من شأن بني حواء وتكشّف لي من خبيء أمورهم، وخبيع⁽³⁷⁾ شرورهم، ما قد أجااني⁽³⁸⁾ إلى المفارقة عن المرافقة، وإلى المتاركة عن المشاركة. فاستبدلت بالانضواء فيهم الانطواء عنهم؛ فما أدركني من ذلكم إلا زيادة خير، وبركة سير، وهجرة ضير، وراحة بال، وحسن حال، وبهاء نفس، وهناء روح. وإن كان كل أولئك مقترناً بقدر من الأذية، فما من نُدْحَةٍ لحِيٍّ عنه، ولا مفر لعائش منه. ولعل فيه من الخير ما الله يعلمه، ولا

³⁷ خبع الرجل الشيء خبأه والخبيع المخبأ. وتميم تسمى الخباء بالخباع. وفي المتن أني مخبوء شرورهم الخفي.

³⁸ أجااني أي دفعني وألجاني.



نعلمه. وصدق ربنا في قوله: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾³⁹.

ولقد رأيت من صنوف العباد، وصروف الأيام والبلاد، ما أجاءني إلى اتخاذ العزلة مذهباً، واجتناب الكثرة منهجاً. واجتعال تقلّل الجلّاس فرضاً، والتّحنّف عن السُّنوح واجباً،⁽⁴⁰⁾ وشهود الفضول محرّماً، ومقاطعة البشر مباحاً. ولقد صحّ عندي أن للمرء في العزلة، عزٌّ له. فالاعتزال محض اعتزاز.

وإن ألجأني إلى المخالطة مُوجب، كطلب رزق، أو بذل عون، أو شهود جمعة، أو عزاء فقيد، أو صلة رحم؛ فما يكون من اجتراح أولئك إلا بأضال قدر ممكن، وأبال زمن متاح.⁽⁴¹⁾ والله

³⁹ البقرة: 216.

⁴⁰ - بمعنى أي اجتناب الظهور.

⁴¹ - أي أقل زمن. والبئيل بمعنى الضئيل.

قول ابن عطاء الله السكندري: "ما نفع القلب شيءٌ، مثلُ عزلة يدخل بها ميدان فكره".

ومما تحقّق لديّ أنّ ترك الاعتزال في واقعه اعتزال. حيث تشغلك المشاركة، ويَعزلك الاختلاط عن: مجالسة فكرك، ومقابلة قلبك، واستتبار نفسك، واختبار ذاتك، واغتوار روحك. وما إخاله يتأتى لواحدنا أن يدرك شيئاً من كل أولئك، إن هو لم يأخذ لنفسه من العزلة حظاً واسعاً، وقطاً شاسعاً، ونصيياً فاسحاً.

فما خيرُ تراه في اقتعادك موضعاً تشرك فيه نفسك بمن هو من غير جنسك، ديناً، وخلقاً، وهوى، وأدباً، وفكراً؟ وما الخير تراه في اجتماعك نصيباً من وقتك، تذيبه في سواخن الطرقات، أو تجمّده في باردات الليالي؟



لا يستوي مثلاً الذّون حفظوا لأعمارهم أيامها وساعاتها،
والذّون أتلّفوا من قوامها ما لا يستعاض عنه بمكانز الدنيا.
ولا يستوي شأن من ضنَّ بأوقاته أن تنهشها صوارف الأيام، و
تتلفها فراغات العُطول، وشأن من استباح كساده حرمة أوقاته،
واستدام فراغه التهام أيامه.

ولقد بلغنا ما خرجه الترمذي من رواية أبي برزة نضلة الأسلمي
قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تزول قدما عبد
يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه؟ وعن علمه ما فعل
فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفق؟ وعن جسمه فيما
أبلاه)).⁽⁴²⁾

ورحم الله ابن الخطاب يوم قال ناصحاً ((خذوا بحظكم من
العزلة)).⁽⁴³⁾. وأبا الدرداء يوم قال: ((نِعْم صومعة الرجل

⁴² أخرجه الدارمي في سننه: باب من كره الشهرة والمعرفة، والترمذي: باب في
القيامة.

⁴³ التبصرة لابن الجوزي ص 272.



بيته؛ يكف بصره ولسانه)).⁽⁴⁴⁾ فكنْ لأجل ذلكم كبارح الأروى،
قليلاً ما يُرى⁽⁴⁵⁾.

وقد يثقل على الأكثرين استطابة مذهب الاستقلال والاعتزال،
ورب فاضل ظل في هوة بين الناس، فأدركه الابتئاس، وجفاه
الاثناس، لأجل ما يغلب على عينه، ويرين على قلبه، ويمور في
نفسه، ويحوك في ذهنه، جراء ما يحتقبه من فظاظة مخاطبيه،
وسماجة معاصريه، وفهاهة مخاطبيه، وتهاية محادثيه، وركاكة
مجايليه، حتى تصير مغادرة مسلاخه أهون على نفسه من
اجتلاس مجالسهم، وارتياح مسالكهم.
وفي هذا المعنى قلتُ:

لا تُلق نفسك بين الخائضين بها إن التحوّض مسراه إلى الخطر

⁴⁴ مكارم الأخلاق ومعاليها للخرائطي 317.

⁴⁵ من أمثال العرب: "إنما هو كبارح الأروى، قليلاً ما يرى". مجمع الأمثال
447/1. بارح الأروى ما يظهر من غزلان الجبال مرة بعد مرة على نحو
متباعد. والأروى جمع أروية. الغزالة الجبلية.

واعلم بأنّ جلوساً في فنائهم كالمراء يجلس فوق الشوك
لا ألفينك تروم الفضل عندهم مثل النّغاشي يطلّب ذروة الشجر
ولله قول الزمخشري ((لا ترصّ لمجالستك، إلا أهل
مجانستك)). وقد صدق النصح، فالمشاكله الخلقية، مؤذنة
بتوطيد حبال المصادقة، وتمتين جسور المرافقة. على غير نحو
ما تراه من التفارق بين الطبائع، حيث لا حظّ للتوافق بين
المتفارقين فيها، ولو تكلفوا التصادق، وتصنعوا التوافق، فما هذا
مما يدوم حاله على التكلف، ولا مما يعمر أمدّه على التصنع؛
لأجل أن التصنع الخارجي من مقدورات الأعضاء، وما تصطنعه
من سلوكات ظاهرية، وتجسّدات جسمية للعين مرئية. والزيف
في هذا الباب متاح غير ممتنع.

أما التصنع الداخلي المتعلق بالأرواح ودواخل النفوس؛ فهو
مما لا عمر له، ولا متاح فيه لطامع، ولا نُدحة فيه لراغب، إذ ليس
للأرواح جوارح تبدي خلجاتها، ولا أعضاء تظهر شعوراتها،
فهي من عالم الطهر والنقاء، حيث موئل الطبائع الفطرية،

والشمائل الجبلية. فأيهات منها التصنع، وأنى لمثلها التخذع.

(⁴⁶)

ألم تر أن الأرواح حين تئبن منية الإنسان؛ تنفك عن بدنه، لتتركه للبلوى، طعمةً لتراب الأرض ودودها، لتسمو محلقة في السماوات العلى. لئسكنها المميت حيث شاء، مما يليق بها.

لقد خلق الله الناس وسخرهم، بعضاً إلى بعض، وقال: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾⁴⁷. فكانت أرزاق كثير منهم منوطة بأيدي كثير آخرين. ومصالح أغلبهم موقوفة على التعاطي والتبادل المبدول بين سالكي طرق الارتزاق، ومسالك الارتفاق. ولقد نفرت شريعة الله عن الاتكال المفرط، والتعلق الغالي بالناس، بعيداً عن سعي النفس، وكد البدن، وجهد العقل. فكان

⁴⁶ التخذع تكلف الخداع.

⁴⁷ الزخرف: 32



الناس أحدَ رجلين، إما عصامي مترفع عن الاتكال، وإما اتكالي عاجز عن الارتجال. وما كان من شأن هذا الآخر إلا أن تواهن؛ فأدركه الهوان، وتخانص عن ترصد المعالي، وارتكن إلى مواهب الناس لا ييالي؛ فاحتوشه الخمول، واصطحبته الذبول، والتبس الذبول؛ فكان عاقبة أمره حياةً شعارها الإياس، ودثارها الإيلاس.

ولقد كان من معهود سنن البشر أن من اتكل على غيره، وجعل هجيره التواكل، ودأبه التهاون؛ أصاب من ذل المسألة، وثقل الصدود ما يلقيه في أتون اليأس.

أما من ضَبَّأ إلى مفارقة الاتكال، ووَأَل إلى حَرَم الاعتزال عن السؤال، فإنه لا ريب محصّل لشرف البراءة عن إهانة أهل المنّ، وإذلال أصحاب الإعانة، وتباهي ذوي العطاء.



كما قد جرت سنة الحياة بإكرام من تزيّل عن مخالطة الكثرة،
وترفع عن حرج المسألة، وأناف عن سفوح المطامع. مؤثراً العزّ
بعزلته، والسُّموق برفعته.



الهمّة مُوصلة، والخمود مهلكة



الهمة موصلة، والخمود مهلكة

ليس بكائنٍ حسنٍ التدبير، في همة منك تبُوخ⁽⁴⁸⁾، ولا تبرم فيك يلوح. فالكيس من جعل المشبطات دُبُر أذنه، والمفترات وراء ظهره، والصوارف تحت رجله، والمعالى فوق رأسه، والرغائب وسط عينه، والمأمول صوب أنفه. حينها يكون قميناً بالوصول، ومجدرة للدخول.

وليس أقعس الرجال من أعجزته بواهض الكد، أو أقعدته مثاقل الشد، بل هو من تمكث عاجزاً لما سمعه، أو تبنك آيساً بما علمه، أو تلبث خامداً لما بلغه، دون أن تطرق رجلاه من الطريق خباراً، أو تمازج وجنتاه من المسير غباراً، أو تعالج ركبته من السبيل عثاراً. فما عليه بعدُ إن كان ذلك منه، أن يدرك التوصل، ما دام قد حقق التوسل. فمكابدة الوسيلة، عزاء لفاقد الوصيلة.

⁴⁸ باخ الحر والكلام مثلاً أي فتر وهدأ. ومضارعه يبوخ. أباخ النار أي أحمدها.

وليس قمينا بمن هَجَّيرَه التَّبَنُّك⁽⁴⁹⁾ والخمود، ودأبه التَّمَكُّث
والهُمُود، أن يشكو أمره، أو ييدي ضجره، أو يعلن حرَدَه. فخليق
بأضرابه حرمان الوصول، وملازمة الذبول، ومخادنة الذبول،
واللبثُ في ذهول. فهذه النقائص أولى به، وهو بها أجدر، ما دام
شأنه قائماً على ما وصفنا وأخبرنا. فإن لم يصبر منه حاله إلى غير
حاله، فما له ندحة من أمل إلى مزايلة خذلانه.

وليس بغارب عن كل ناظر أن التخذيل يورث التذليل،
فمستمرئ اقتعاد الأعتاب، واحتذاء الأجانب، لا جرم أن قد
أورثه ذلك تخذيلًا حاق به - يومًا - من رفيق حسبه صديقًا، أو
خَدِينٍ ظنه صدوقًا، أو معيلٍ قصرت عنه النفقة، أو قريب زايِلته
الشفقة. وظاهر أن أجهر ما وراء ذلك من الأسباب، إدمان
الالتكال، وتعجّل النوال، وتلاشي الهمة، وخور العزيمة.



⁴⁹ تبَنُّك أي مكث وثبت في مكانه وتمكن فيه.

رذيلة نكران الفضل



رذيلة نكران الفضل

لقد رأيتني أبذل من الجهد ما يُعجز الرهط من الرجال، ثم لا ينالني من جريرته غير الوبال، أو الندامة في أهون الأحوال. وما صار ذلك يؤذيني برغم غزارته على مرّ سنيني. فقد أخبرتني الدنيا أنها لا تسير بغيره، وأقسمت لي بأن لا تتركه. فالحجود عنوان رحابها، وسنةً أبنائها، وهجير طُلابها.

وكم قد رفعتُ من خسيصة قوم، حتى إذا آن أوان ردهمُ الجميل؛ باحت الدسائس من تحت الخسائس، فما كان أغناني عنها وعنهم، لولا غرارةُ أورثتها، وغفلة أدمتها.

قلتُ:

إذا أنت أوليت الخسيس كرامةً	فما لك من لومٍ يلام سوى لك
فما كل خير يُرتجى حُسنُ غِبِّه	وما كل راجٍ يستحق نوالك
ولا كل مبيض الرداء نظيفه	ولا كل مغضٍ للعيون سجي لك
فرب رفیق ظاهرٌ حسن حاله	هو النار تتلف ما لديك وما لك
فأيقظ عيوناً منك ظلت عميّة	وفتح مسامع إن أردت النجا لك

ذاك شأن من غرك منه ظاهره، مما لم ييح به مخبره، وكأئن ممن
اكتسته بشاشة الكرماء، وهشاشة القرباء، فلما تكشف عن
صريحه؛ رأيت فيه سحابةً خرساء، لا تسمعك رعداً ولا تريك
برقاً. أو كناية عجفاء، لا تسقيك ضرعاً، ولا تغذوك لحماً،
ولا تُعليك ظهراً. غيابه يضارع حضوره، وبعده يماثل دنوه،
وقربه يطابق فقده.

وإن أنت ذهبت تستوهب الأيام كشف بواعث نفاقه معك، وسوء
أخلاقه نحوك، وشر مكنوناته لك؛ ما ظفرت بجواب منها
يكشف حيرتك، أو يسقي غُلتك⁽⁵⁰⁾.

وغالب الأمر - عندي - أن تلك الخلائق عند أولئك الخلائق،
إنما باعثها كوامن نفسية، ومكتومات قلبية، قوامها الحسد، أو
الغيرة، مما اجترمته قلوبهم، وانضمت عليه جنوبهم؛ لأجل ما

⁵⁰ الغلّة، والغلل شدة العطش وحرارته.

حباك الله به وحرّمهم، ومنحك إياه، ومنعهم. كذكاء واسع، أو
خير ذائع، أو غنى شائع، ونحو هذا من نعم الله التي يحبوها بعض
عباده، ويمنعها عن بعض؛ لحكم هو أعلم بها.

والعجيب أن ذاكم النوع من الناس، يكثر منهم الكيد، ويغزّر
فيهم البغض، لمن تحقق منه الإحسان عليهم، والنفع إليهم. هذا
الصنف هو ما دعاه المتنبي باللّيم، يوم قال:

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ
إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّيْمَ تَمَرَّدَا

إني وإن ارتدئ التشاؤم كلامي، أو انتضى⁽⁵¹⁾ التّعس من قرابه
لساني، فلست بقاصد إلى إقناطك من سنوح الخير من بعض
خلق الله، أو بدور فضل من بعض من تلقاه، فالله أكرم من أن
يحجز كل خيره عن كل خلقه، وهو أكرم من أن يحجز إنالته عن

⁵¹ أي نزع.

الطالب، أو يحجب رفاذته عن الرّاعب ولم يزل الواحد من بني
حواء يستنيل ربه؛ حتى يتنوّل من الخير ما يُطغي ويشبع، ثم
يثيب⁽⁵²⁾ صحيفته بما يخزي ويبشع.

وليس لأحدنا- نحن البشر- أن يستعجب اجترام جنس الإنسان
هاذاك الخلق الرذيل، يتعاطونه- بعضهم إلى بعض- فإنّ ربهم
الله- تعالى- لم يسلم من مقابلة إحسانه بما ذكرنا من نكران
للخير، وكُفران للفضل.

وممّا له تعلق بهذا المعنى ما رُوِيَ في بعض الأحاديث القدسية
(أَخْلُقُ وَيُعْبَدُ غَيْرِي، أَرْزُقُ وَيُشْكِرُ سِوَايَ. خَيْرِي إِلَى الْعِبَادِ
نَازِلٌ، وَشَرُّهُمْ إِلَيَّ صَاعِدٌ، أَتَوَدُّدُ إِلَيْهِمْ بِالنَّعْمِ وَأَنَا الْغَنِيُّ عَنْهُمْ.
وَيَتَبَغَّضُونَ إِلَيَّ بِالْمَعَاصِي وَهُمْ أَفْقَرُ مَا يَكُونُونَ إِلَيَّ)⁵³.

⁵² أثاب يثيب أي كافأ بخير أو شر.

⁵³ لم يصح له وجود في دواوين الحديث الأصلية بهذا التمام. والحديث بعامة
أخرجه البيهقي في شعب الإيمان 6 / 311 من حديث أبي الدرداء، عن النبي

عجباً لنا- نحن البشر- من جنسٍ وخليقة؛ فصنّفنا أحرص على أذية غيره، منه على نفيعة نفسه. وقدر اللذابة في إضرار غيرهم، أغزر منه لديهم في نفع أنفسهم.

ولا يكفي الواحد منهم ما اجترم من بوائق، هو وفصيلته القائلين لإخوانهم هلمّ إلينا، أشحة على الخير، ولا يأتون الخير إلا قليلاً. ولسان حال كثير منهم قائل: "إن لم تغلب؛ فاخلب". وقائل: "اطعن من استطعت، ولا تبال إن كانت طعتك سُلْكِي، أو مَخْلُوجَة⁽⁵⁴⁾، فلا أحد أحق بالحياة منك، ولا أولى بالنَّجاة فيها سواك.

هذا لسان حالهم يفضح مكنونهم، ويقول مكتومهم. فبئس القائل، والقالة، والمقول له. وتعيّس زمانُ أهله على هاته

صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله عز وجل: إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري) وفيه بقية وهو كثير التدليس.

⁵⁴ الطعنة السلوكي أي المستقيمة، والمخلوكة التي تكون منحرفة معوجة.



الشاكلة. ذلك مبلغهم من الخبث، وقت ساءت النية، وخاست
الطوية.

ولقد خبرنا من خلق أولئك أن أحدهم يودّ لو يُزاد له من عطايا
الحياة، حلّها وحرامها، وما هو بمشبعه أن يُزاد، ولا بمقنعه أن
يعطى ما أراد، فما مناطُ الأمر في زيادة أو إقلال، إنما مناطه في
قناعةٍ تُكثّر قليل ما يُطال، وبركةٍ تُعظم بئيل ما يُنال، ولو أنهم
ارتضوا ما حصل، واكتفوا بما وصل، لمتوبة من عند الله خير.

لا يحملنّ أحدنا الإياس من النّوال، أن يطلبه دون اشتمال شرفه،
واكتساء كرامته. فدونهما لا بركة في أي نوال، ولا غناء من أي
مال؛ ولا طائل في أيّ منال؛ فالمسلوب حينها أغلى من
المجلوب، والمُكتسب أبهض من المنتضى. ولأنّ يمارغ الرجل



الرغام بثواقل فاقتة، أشرف لعينه من الترفل في النعيم دون كرامته.

لقد شاء الله - تعالى - أن لا يجعل خلقه على جديلة واحدة، شكلاً، ولوناً، وطبعاً، وذوقاً، وأصلاً. فسنّ لهم أنهم يتماشجون، حال كونهم يتواشجون⁽⁵⁵⁾. وجعل من مظاهر حكيم حكمته، ومُحكم حكمه، أنّ الخلاف فيهم سنة؛ فخلق للخير بشراً، فهم فيه، ومنه، وله. وخلق للضير بشراً، فهم فيه، ومنه، وله.

وخلق ضرباً ثالثاً ميالاً حيث يميل الأكثرون، وبازورارهم يتنحون، وبإحجامهم يتأخرون، وبإقدامهم يتصدرون. لا تكدّ عقولهم تفكيراً، ولا تَجهد جوارحهم تدبيراً، ولا تُشدّ أفواههم تعبيراً. إمعة؛ حيثما قيدوا؛ انقادوا، وحيثما طلبوا؛ ارتادوا،

⁵⁵ أي أنهم يتخالطون، ويتواصلون؛ فالمشج والمشيح كل شيئين اختلطاً، والجمع أمشاج. والتواشج أي التداخل بين الأشياء، نقول مثلاً تواشجت الأغصان، وتواشجت المصائب.

وكيفما عودوا؛ اعتادوا. هؤلاء قد خنست عنهم الهمم، وهرئت
منهم الرمم.

يعلمُ الله، لقد رضينا بما ابتلينا، فنحن وأنت بين قوم إن غبتَ
شتموا، وإن افتقرتَ؛ شتموا، وإن اغتيتَ حسدوا، وإن طلبتَ؛
منعوا، وإن منحتَ؛ رغبوا، وإن منعتَ؛ سخطوا. وإن مات
كلبك؛ تراحموا بيتك، وإن ميتٌ أنت تركوا دفنك.

وما مهرؤا في أمر، كمثل مهارتهم في قلب الحق على غير ما هو
عليه، وكمثل تغييب معاييهم عن أعين الرقباء، وما مثلهم ماهر
في تغييب معالم السوء الماكثة فيهم. وإن مثل ما يدلون به من
أعذار، كمثل المرفد تتعظم به الرسحاء،⁽⁵⁶⁾ أو المسند يُسند
الكسحاء.

فما الخير في مقاربتهم، وما المنحة في ممازجتهم، وما الصواب
في معاشتهم؟

⁵⁶ - ما تشده المرأة الرفيعة العجفاء على عجيزتها لتبدوا أضخم وأكبر.

إِنْ قُرْبَهُمْ إِلَّا إِجْبَارٌ حَيْثُ لَا خِيَارَ، وَاضْطِرَارٌ حَيْثُ لَا قَرَارَ. عقود
تَكَرَّرَ، وَسُنُونٌ تَمَرَّرَ، وَأَيَّامٌ تَضَرَّرَ، وَقَلَّ مَا تَسَرَّرَ. وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ الْعُقُولِ
تَتَحِيرُ مَوَاطِئَ أَقْدَامِهِمْ، وَنَوَاطِجَ أَفْهَامِهِمْ، إِزَاءَ تَلَكُمِ الْأَصْنَافِ،
إِقْدَامًا وَإِحْجَامًا، جَمْعَةً وَكَلَامًا. أَمَّا وَقَدْ تَعَسَّرَتِ الْمَوَاطِئُ،
فَقَدْ وَجِبَتِ الْمَقَاطِعَةُ.

قال الشريف المرتضى:

بلوت وجربت الأخلاء مدة فأكثر شيء في الصديق ملال
وما راقني ممن أودّ تملق ولا غرني ممن أحب وصال
وما صحبتك الأدنّون إلا أباعد إذا قل مال أو نبّت بك حال
وعن الشافعي ورد قوله:

إذا لم أجد خلاً تقيا فوحدتي ألد وأشهى من غوي أعاشره
وأجلس وحدي للعبادة آمنا أقرّ لعيني من جليس أحاذره



إنك إن لم تجد من تشاركه عِيَّة مكفوفة، وذمة محفوظة،
وخافية مطمورة؛ فأنت إلى ترك مصاقبته⁽⁵⁷⁾ أحوج منك إلى شد
مصاحبته. فما الخير في مَنْ إذا احتجته، فقدته. وإذا طلبته عِدته.
فما هو لك إلا كَوَهمٍ لواهم، أو حُلْمٍ لنائم.

ولن تكون عن الحماقة بمعزل، بل أنت فيها بمنزل، إن أنت
رجوت النُصرة من أضرابه، أو شددت عضدك بأمثاله، فما
رجاؤك النُصرة من أضرابه إلا كرجاء العقيم للولد. وما طلبك
شد العضد بمثله إلا كمرتكن على خواء، أو متعلق بهواء.



⁵⁷ أصقب الرجل الشيء إصقاباً أي قربه، وتصاقت تصاقباً البيوت أي
تقاربت.

ترك مصاحبة الحمقى



ترك مصاحبة الحمقى

لقد رأيت من غزير الناس من تغرّه مظاهر ما يتجمل به الحمقى، من التزيّد والتزيّن، والمفاخرة، والمظاهرة، فيندلف إلى المقاربة، ويتزجّج إلى المخادنة، ثم لا يبرح حتى تفجّؤه جرائر تلك المقاربة، وتلسعه مغبة تيك المخادنة.

وقُراب⁽⁵⁸⁾ ذلك ما ثقلت بشهوده أيامُ الناس، من التزهد في مصاحبة العقلاء، ممن أقفرت جيوبهم، وهجعت حظوظهم، وشحبت أيامهم، وشحّت أقسامهم. وما شأن هاته الزّهادة فيهم إلا كونها برهانَ حمق، وأمانة خذلان. وكأئن من غافل عن حق صواب الاختيار، قد أمّص فؤاده افتقاده السلامة، وساخت رجلاه في خُبار⁽⁵⁹⁾ الندامة.

⁵⁸ أي القريب منه.

⁵⁹ الخُبار الأرض اللينة المسترخية بحيث تسيخ فيها الأرجل.

فإن كنت - ولا بد - مصاحباً، فلا تترك صحبة العاقل، ولو كان فقير النفع، ضعيف الدفع. ولا تتركن لصحبة أحمق، ولو كان غزير المال، مرجو المال.
ولا يفارقنك قولي: إنَّ مخالفة عالم، خيرٌ ألف مرّة، من موافقة جاهل.

وقد صحّت نصيحة صالح بن عبد القدوس في قوله:
عدوك ذو العقل أبقي عليك من الصاحب الجاهل الأخرق
وذو العقل يأتي جميل الأمور ويعند للأرشد الأوفق

وظاهر عندي أن ابتلاء بعض العقلاء بمصاحبة الحمقى، ما هو باختيار أساغته الفكرة، وأجرته الفطنة، وفرضته الرغبة، إنما هو ضربٌ عقوبة ربانية عجّل بها الله لبعض خلقه في دنياهم. وإلا فما وجه التعقل في صحبة مختلس العقل، مهتلك الفطنة، مسلوس الحكمة، مسلوب النباهة؟ وما وجه التعقل في تعشّم الخير في صحبة من حاله كمن وصفنا؟ فإن كان عذره أنه آنس منه روحاً

طيبة، ونفساً جميلة، فما حاله إلا كواصف الجمال في عينِ
عمشاء، أو شجرة عشاء^(٦٠). فما لصفة أيّاً كان حسنّها،
وقدرها، أن تشفع، أو تسوّغ مقارنة ومخادنة من كانت فيه، وقد
تلبس بالحمق.



^{٦٠} الشجرة العشاء ما كان أكثرها يابساً.



فضل المشاورة وتعاطي الرأي



www.alukah.net



فضل المشاورة وتعاطي الرأي

لو أن رجلاً آتس من نفسه أمارات الترفع عن مشاورة أهل العقول، والاستبداد بالرأي دون ذوي الحكمة، ممن جرّسهم⁶¹ (الدهر، فليوطئ نفسه لسقطة تذهب بباطنه وظاهره، فإنه يوشك أن يذهب سلوك مثله، بمثله.

وقد قيل في فضل الشورى: "المشاور بين أمرين: صواب يفوز بثمرته، أو خطأ يُشارك في مكروهه". فإن ناله الصواب، فقد حصل ما لأجله شاور، وفاز بما إليه هدف. وإن ناله الخطأ؛ خفت عنه مؤونة الإحباط، وتوزع اللوم بينه وبين من أسدى إليه المشورة. لأجل هذا كانت المشاورة بركةً، وجنةً، فإن لم ينل المشاور بها الخير، لم ينله بها الضير.

⁶¹ جرّسه الدهر جعله خبيراً وأزيد حنكة وحكمة بأمور الحياة.

أما المستبدّ برأيه الهاجر للمشاورة، فإنّ مكروه خطئه، سيكون به محيقاً، دون تهوينٍ، وبه محيطاً دون مشاركة. وفي هذا ما يبهض النفس، ويؤودها، ويزري بالهمة ويثقلها.

وليس أدلّ على توكّد الحمق في صاحبه، من الاستبداد بالرأي، واتخاذ آذانٍ مسدودة، وقلوب مصدودة؛ تعمى عن فضل المشورة، وتعشى عن ثمرة اجتراحها، وتترفع عن جدوى انتهاجها ؛ غروراً. لذلك كان الغرور للحماقة قريناً، مرتبطاً وإياها بقرابة موثوقة، ورحم غير مقطوعة.

أمّا مُستحق المشاورة من الناس، الجدير بأن يُلجأ إليه عند التحير، فهو بينهم نادر السُّنوح، عزيز الوجود، فهو كبارح الأروى قليلاً ما يُرى⁶². فإن ظفرت بمن هو أهل لذاك فاعقد

⁶² تعبر العرب في بعض أمثالها عن الشخص قليل الظهور بقولهم هو كبارح الأروى، أي ما يبرز يظهر من أروى في الجبال. والأروى جمع أروية وهي الغزلان الجبلية.

وثائقك بصلته، واشدد يمينك برأيه. ولا يطغينك أن كنت ذا
توفيق متصل، أن تشاور من استحق أن يُشاور.
وحاذر أن تطلب الرأي والتدبير من غير فطن، نبيه، ذي خبرة،
وتجربة، فما كان للمشاورة أن تستجمع فضلها وتؤتي ثمرتها،
وتحقق بركتها، إلا باقترانها بأهلها، وطلبها ممن هو من أهل
النباهة، وأولي النصيحة، ممن يحسن يفهمك، ويتقن ينصحك.
وما جعل الله لأحد من خلقه غناء عن الاسترفاد بعقول أهل
البصيرة من مجايليه، والاعتضاد بأهل الرأي والنصيحة فيهم.
وما استغنى عن ذلك إلا نبي، لتحقيق الاسترفاد له من جناب الله
-تعالى- مباشرة، فلا حاجة له - والحال هذه- بما يهبه أهل
العقول لمن احتاج نصحاً، أو اعتاز مشورة. فله في الله أبلغ
عوضٍ، به يتأيد، وله فيه أقوى سند، به يتسدّد.



سنة الحياة البلاء والإيذاء



www.alukah.net



سنة الحياة البلاء والإيذاء

ليس يغيب عن نظرنا كونُ معهود شأن الحياة أن تشتدّ وتمتدّ، ثم تحوّر فترتد، صافقة صافعة، خافضة رافعة. تؤلم الوجوه، وتدمي الجلود؛ جراءً توارد الصفعات، وتواتر الكدمات. ثمّ هي تجور بما حقّ لهم منها، وتحيف بما استقام لهم فيها.

هذا خلق في الحياة عريق، ودأب منها عتيق. وليس ينجو من ضيرها وكربها فاضل ولا كامل، بل إن أشدّ بلائها منوط بأهل الفضل الأمثال. ومصدق هذا أن سيدي رسول الله حين سئل: (أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياء، ثم الصّالحون، ثم الأمثل فالأمثل)⁶³.

⁶³ - الحديث أخرجه أحمد في مسنده، قال: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عاصم بن أبي النجود، عن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: قلت: (يا رسول الله أي الناس أشدّ بلاءً؟ قال: " الأنبياء، ثم الصّالحون، ثم الأمثل، فالأمثل من الناس، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض

ولولا كلمة من الله سبقت، لكان الناس أمة واحدة، على جديلة واحدة. لا تفاضل، ولا تفاوت، ولا تفارق. لكنّه شاء ما شاء، فكان ما كان، ممّا أكّنه في خلقه، وكوّنه في كونه. فتبارك الله أحكم الحاكمين.

وإن أنت ذهبت تطلب للسّلامة أسباباً تُديم شدّك إليها، أو ترمي إلى الهناء أملاً بدوام حضوره إليك. فاعلم حق اليقين، أنّك تطلب محالاً، وتروم ما لم يكتب لأحد من أهل الدُّنيا، لا نبي ولا وليّ، ولا رفيع ولا دنيّ.

فاترك عنك خُلب المطالب، ومَوْهوم الرّغائب، وامخر عُباب بحر حياتك، بما أنت عليه، وعلى ما أنت فيه. فإن أصابك خير فاشكر، وإن أصابك شرّ فاصبر. فهذا خُلق المؤمنين، وما يُلقّاه إلا ذو حظ عظيم. وكم قد حرم منه من حسبناه أهلاً له، وكم قد

ليس عليه خطيئة". وأخرجه أبو داود وابن أبي شيبة والدارمي وابن ماجه والترمذي وأحمد بألفاظ قريبة منه.

نالِه من ظنناه خِلواً منه. فليس كل من كان له من الفضل سهم،
بنائل من الصّبر سهمًا. فقد أبت الفضائل أن تجتمع إلا لفئام
قليلة، هم بين النَّاس كغرفة ماء صغيرة، من نهر وافر مديد.

ولئن وجدت من نفسك جلدًا على شدائد الدنيا، وكرّبات
الحياة، و بوائق أهلها، فألفيتها تمر بشراع صبرك، فلا تمزقه،
وتصدم أمواجها قارب أيامك فلا تقلبه. ثم وجدت دينك لازال
ماكثًا في قلبك؛ فاعلم أنك من المصطفين الأخيار، وأنت في نعمة
لن تدرك قدرها إلا يوم يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب.

ربّ فاضل استزار الموت، واستقدم الفوت، واستنفذ الصّبر؛
واستحب القبر؛ من هول مرّائي الأيام، وبوائق الأزمان، وانفلات
الخلائق، وانبثاث البوائق. وكم منهم من أعلن بلسان حاله قول
شيخ المعرة أبي العلاء:



فيا موتُ زُرْ إِنَّ الحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ ويا نفسُ جِدِّي، إِنَّ دَهْرَكَ هَازِلٌ

وَأَمْضَى مِنْ هَذَا قَوْلُ الْوَزِيرِ الْمَهْلَبِيِّ:

أَلَا مَوْتُ يَبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ فَهَذَا الْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ
أَلَا مَوْتُ لَذِيذُ الطَّعْمِ يَأْتِي يَخْلَصُنِي مِنَ الْعَيْشِ الْكَرِيهِ
إِذَا أَبْصَرْتُ قَبْرًا مِنْ بَعِيدٍ وَدَدْتُ لَوْ أَنَّني فِيمَا يَلِيهِ



خطر الفراغ والعطل



خطر الفراغ والعَطَل

لم أرَ أضَرَّ - على ابن آدم - من وقت يطول دون طائل، ولا أشأمَ من زمن يوهبُه دون عمل يملؤه، أو سعي يشغله. مع وفور صحة، وكمال قوة - وأيمُ الله - تلك هي المحسرة الثانية من قول نبينا الكريم، صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس؛ الصحة، والفراغ)^{٤٤}.

لا جرم أن فراغ الزمن، وعُطُول السَّعي، وخمول الجوارح، كل أولئك مؤذنٌ بخمود الروح، وهمود النفس، وجمود الهمة. ولعمري إن هذا - في حقيقته - موت قبل الموت، وفناء قبل الفناء. فماذا بقي لابن آدم إن هي خمدت فيه الروح، وهمدت منه النفس، وجمدت فيه الهمة.

^{٤٤} أخرجه البخاري، وأحمد، وابن ماجه، والترمذي، وابن أبي شيبة، كلهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وليس يغرب عنا أن وقت حياة الإنسان أمانة، حمّلناها واهب الحياة، وأنه سائل عنها عبيده يوم تلقاه. لذلك قال مصطفىاه: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه؟ وعن علمه ما فعل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وعن جسمه فيما أبلاه)⁶⁵.

إنَّ أهل العقول يستثقلون كل عَظول، برغم تمكثه عن اجترام أي خير أو شر، فإن مُكثه عاطلاً خاملاً مؤذناً بكلِّ ضُرٍّ، في أيِّ زمان، وبأيِّ شكل، وفي أيِّ مكان. ولا عجب في أن واهلة⁽⁶⁶⁾ أمره قد بشرت بما سنح من آخر شأنه.

ولم يكن من باب المبالغة قول ابن مسعود: ((إني لأبغض الرجل أن أراه فارغاً، ليس في شيء من عمل الدنيا، ولا عمل الآخرة)).
(⁶⁷)

⁶⁵ تقدم تخريجه انظر ص 24.

⁶⁶ الواهلة أول الشيء ومبتدؤه.

⁶⁷ حلية الأولياء، أبو نعيم، 1/ 130.

أَخْلَقَ بِهِ مِنْ صَانِعٍ لِلسَّامِ، وَمُسْتَحَقِّ لِلْبَرَمِ^{٦٨}، كُلُّ مَنْ أوردَتْهُ
غفلته معاطن العُطُول، وزرائب الخمول، حتى صار سُبَّةً على
الإنسان، وإِصْرًا في المكان، وفراغًا في الزمان.
وما ذاك فيه بأشدَّ ما استحقَّه من نُعوت الزَّراية، بل هو مجردة
للمزيد، ما دام على ما هو ماكث عليه، وما سار إلى ما هو قاصد
إليه، من صنائع الهمود، وعوائد الخمود.



^{٦٨} المستحقب الجامع والمحصل. البرم الملل والسَّام.

فضل العلم وطلبه



فضل العلم وطلبه

ليس يتم شرف الإنسان حتى يجمع الله فيه خصالاً هي: الديانة، والكياسة، والفطنة، والفقاهة، وحسن الخلق. فإن فاتته وراء ذلك من شيء؛ فلن يضره، إلا ما يضر النهر العامر، من نُغبة طائر.

وبحسب العلم بركة، وطُفوح خير أن فضله ضاف على؛ طالبه، وكاسبه، وباذله، وقابله، وناقله، وحاضره. وبحسب من نالهم وصف العلم - شرفاً - أن ربهم أشركهم في صفة من صفاته، وقصر تحقق خشيته فيهم، وكمال فضله عليهم، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾⁶⁹.

ولقد استقر بين سنن الله في الحياة، أن نوال كرائم الأشياء، لا يتاح لغير من كد وجد، وفي طلبها اشتد. وإن أحد أخبرك أن في الناس من أوتي من العلم، ما لم يبذل فيه مهجة نفسه، وراحة بدنه،

⁶⁹ فاطر الآية 28.



وبهجة عمره، فاعلم أنّه كاذب. ومن أوهمك أن العلم يُنال بغير

التّعني، والتّقصي، فأيقن بأنّه خادع.

وليس في المبالغة قولِي:

طلبُ العلوم بغير الجهد والجلد مثل العقيم يُرجي مقدم الولدِ

فإن رأيت عقيماً جاءه ولدٌ فاطلب من العلم ما يأتي بلا



حسن الخلق وفضله



www.alukah.net



حسن الخلق وفضله

لكل غابر تركةٌ وورثةٌ، فالصلاح تركةُ الصالحين، والفساد تركةُ الفاسدين ولقد نعلم أنَّ من أمارات توفيق الله لعبده، عونه على فطام النفس عن ارتضاع شهواتها، وسَوْقُها إلى احتباء ثوب التلبّث، واكتساء كساء السَّكينة، واستدبار دِمنة⁽⁷⁰⁾ التقصير، واستقبال قبلة التَّشْمِير، والإحسان لوجهة التَّدْبِير. حتى ما يكون مفعول الفاعل منّا خارجاً عن مساق الفضائل، ولا ناداً عن مسار الكرائم.

ولقد نعلم أن مبعث حسن الخلق، ومبدأ حقيقته ما يوهب لواحدنا من مصححة القلب، وسوية النفس، وسكينة الروح، حتى يصير سلوكه، وقوله، وفكره، وهمه، وتركه مقوداً إلى هذه

⁷⁰ الدمنة تطلق على المزبلة، وما يبقى من آثار الناس وديارهم المهجورة.



المعاني بأجمعها، متزيلاً عن معائب البشر، ومصائبهم، وفي
نجوة⁷¹ عن بوائقهم وفواقرهم.

وَجُمَاعُ كُلِّ ذَلِكَ النّظَرُ إِلَى حَقِيقَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّحَقُّقُ بِتَحْقِيقِ
الحكمة من فيض جنابه، فمعرفة منطلق الحكمة، وطاعته
سبيلها، ورضاه غايتها. فهو قلب الغاية، ولبُّ المقصد،
وسُوَيْدَاءُ المرام.

وما سوء الخلق في حقيقته إلا ترك لحسنه، وجريرة لمزايته⁷².
فبقدر ما يُتَارَكُ ابن آدم من محاسن الأخلاق؛ يحتقب من
مساوئها، وبقدر ما يستقلّ من سميحها؛ يستكثر من سميحها.
ولستُ على مذهب من يرى حسن الخلق، مسلّكاً مكتسباً. إنما
هو عندي هبة لدنيّة، وعطيّة ربّانية، وكأني من أحاسن الناس

⁷¹ النجوة المرتفع من الأرض. ممّا الشأن فيه أن يحتمي الإنسان به عن الخطر
ويأمن. تجمع على نجوات.

⁷² -أعني أن سوء الخلق في واقعه ترك للخلق الحسن، وأثر مترتب على
مفارقة.

أخلاقاً، قد استقاموا على حسنّها، حال حياة لهم محفوفةً
بالصوارف عن الخير، وبالذوافع إلى الضير، ومتلفات الخير.
من افتقاد عاطفي، وافتقار دنيوي، وضيق معيشي.
وكم قد رأينا من أفسد الناس أخلاقاً من بذل أبواه غالب الجهد
لأجل تقويم سلوكه، وتجنّيب عقوبته، ونحقيق سُموقه. وما
استكانوا وما وهنوا حتى استطال عوده، واشتد عموده، على
خلق فاسد، وسلوك عاطل.



خلق التّخافروالتّخافل



www.alukah.net



خُلِقَ التَّغَاوُرُ وَالتَّغَاوُلُ

التَّغَاوُرُ رتبةٌ عليّةٌ في مدارجِ حسنِ الخلقِ، وأمانةٌ محكمةٌ عليّ استحكامِ الحكمةِ، وتَمَامِ العقلِ، ووفورِ النباهةِ، وتحقيقِ الكياسةِ.

وحدّ التَّغَاوُرِ (عندي)؛ أنه صرفُ الاستدراكِ عمّا لا خيرَ في استدراكه، مما تركُ التَّنْبِيهِ عليه، أرجى لحصولِ الخيرِ من التَّنْبِيهِ إليه. وهو بعينه ما يسميه بعضهم بالتَّغَاوُلِ.

ولقد علِمَتِ النَّاسُ أن التَّغَاوُلَ مانعٌ لكثيرٍ من صنوفِ الشرِّ، وأنه حاجرٌ لغزيرٍ من صروفِ الضُّرِّ، مما الشأنُ فيه تنغيصُ الصِّفَاءِ، وتكديرُ الهناءِ، وتَعَكِيرُ الرِّفَاءِ⁷³.

ولقد علمنا من شأنِ التَّغَاوُلِ والتَّغَاوُرِ أنَّ في تركه وقوعاً فيما كان هو حاجزاً عنه، ومانعاً منه. لأجلِ ذلكم قال أمير المؤمنين ابن

⁷³ الرِّفَاءُ والرَّفْءُ هو ضمُّ وجمع الممزق والمتفرق. وهو بمعنى الوئام بين الناس. ويقال أرفأ الثوب ورفأه إذا أصلحه وخاطه.



أبي طالب: "من لم يتغافل تنغصت عيشته". ومن بابه قال الأعمش - رحمه الله -: "التغافل يطفئ شراً كثيراً".

وحسبُ التغافل خيراً وفضلاً، أنه من خلق الأنبياء. كمثّل ما كان من يوسف - عليه السلام - يوم أن قال إخوته بحضرته لمزاً له: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾⁷⁴، فإسراؤه لها وتركه الرّدّ عليهم، هو تغافل منه وتغافر.

وعن محمد بن عبد الله الخزاعي: سمعت عثمان بن زائدة يقول: "العافية عشرة أجزاء: تسعة منها في التغافل". قال: فحدثت به أحمد بن حنبل، فقال: "العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل"⁷⁵

⁷⁴ يوسف: 77

⁷⁵ تهذيب الكمال في أسماء الرجال 19 / 370 ترجمة عثمان بن زائدة. أورد البيهقي في (شعب الإيمان 6 / 330).



وليست الكياسة، والفظانة، والفقاهة، بموصلة صاحبها حدّ
الحكمة، ما لم ينضم فيه إليها تغافل عن مواقف السّفاهة إليه،
وتغافر لمواطن الجهالة عليه. قال معاوية بن أبي سفيان:
"العقل: ثلثه فطنة، وثلثاه تغافل"

وما أجود قول شَمِر بن عَمْرٍو الحَنَفِيّ:
وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى اللَّيْمِ يَسْبِيْنِي فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لَا يَغْنِيْنِي
وأشرف شواهد طلب التغافر قوله - جَلَّ وعزَّ - : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ
الْجُهْلِينَ﴾⁷⁶ وما يكون هذا الإعراض إلا بتغافر وتغافل من المرء
عَمَّن اجترح ما يسوؤه من قول أو عمل.
لا تكن مسلوس العقل، مسلوب الرويّة؛ فتكشف خبيء شأنك
إلى شأنك؛ فَيُشْهَرَك بما يشينك. ولا تشكُّ إلى حاسدك بخفي
أمرك، فتكون كمن ذخر كنانة عدوّه، بما يقرب هلاكه.

⁷⁶ الأعراف: 199



المنتكس عن رُخبة ربه



www.alukah.net



المنتكس عن رَحْبة ربه

كائنٌ من الناس من هو قاطع وشيعة ربه، ومغادر رحبة وده،
ومنتكس عن صلاحٍ كان فيه، إلى خيبة أمسى بها، ثم أصرَّ عليها.
هذا مثله كمثل ذي الشرِّ بين البشر، ممن ضنكت معيشته،
وكربت حياته؛ حتى كأن أتاتين الأرض أمست له وطاء، ليس
للفرج نحوه فرجة، ولا فرح له إلا دونه برح. وقد زايله الأدم،
وكان له كساء، فاحتوشته الهموم بعد سلخه دهرًا نائيًا عن
شدتها، سالمًا عن جُساتها، فصار هريسًا لصخرة الدنيا، حبيسًا
عن نشقٍ خيرها، غميسًا في لججٍ ضيرها، وما كان إلا أن تأبَّد
مستوحشًا، وتأبَّى عن الائتناس، وممازجة الناس، فاحتوشه
الابتئاس.

ولا يغرب عنا أن هذا الحال الانتكاسي الذي يبتلى به كثير من
العباد، هو حال ماكث في ذروة الخذلان الذي يكسوه الله كل من

غضب عليه، وخسر بركة المكث في سواء رحبته، ووسط
رحمته.

والأمر في ذاك من نوع الانسلاخ عن آيات الله، ممن آتاه الله إياها،
وهذا بعينه ما أورده الهادي المعين في قوله {واتل عليهم نبأ الذي
آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين {
الأعراف

وليس بغارب عن شريف فهمك أن الانسلاخ من آيات الله، هو
باب الخروج عن رحاب رحمته، وواسع رحبته، إلى أرض
الخذلان، ومعيشة الضنك.

ولا نرى باعثاً إلى ذلكم غير داعيين كريهين هما: داعي الشهوة،
وداعي الشبهة.

فقد تغلب الإنسان شهوته؛ فتحور به إلى مقتضى تحصيلها،
على رغم من مراد الله تعالى؛ فيحتقب بذلك شؤم مغادرة رحاب
ربه.

و بنحو ذلك قد تغلب على العقل شبهة تجور بذي الحجر عن
معقد تعقله، وتنوء بذي الحجى عن مناط حكمته؛ فيلقى نفسه
قد غادرت رحاب الرضى الرباني، ملقيةً صاحبها في مفازة
الهجران، ومُسبِعة الخذلان، ولاتَ حين مندم.



الختم



www.alukah.net



الختم

إنك إذ تختم هنا ما قد سطرته لك، فإني أرتجي أن يكون لروحك
به مَرَوَح، ولعقلك منه مَعْقِل، ولنفسك فيه مَنَفْس. فقد أودعتُ
فيه من روحي، وعقلي، ونفسي.

كما أرجو لك أن يرضيك، فإني عنه راضٍ. فارض مني بما
رضيت به نفسي لنفسي. وإن لم يجد هذا له موطنًا في قلبك، أو
موطنًا في عقلك، وتأبى عن القبول، فلن تؤودك دعوة خير، تطالنا
بركتها. وأنت وما ترى وما تقول. والله المقصد والمأمول.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

كان الفراغ منه سلخ جمادى الأولى من سنة أربع وأربعين

وأربعمئة وألف عن هجرة

النبي صلوات الله وسلامه عليه



فهرس المحتوى



فهرس المحتوى

12	الفتاحة
21	باعث كتابة المكتوب
25	حقُّ العربية
32	مواتاة العربية، وتنكُّب أهلها
33	مواتاة العربية، وتنكب أهلها
39	الشكوى من سوء خلائق البشر الشكوى من سوء خلائق البشر
46	فضيلة العزلة
56	الهمّة مُوصلة، والخمود مهلكة
57	الهمّة موصلة، والخمود مهلكة
59	رذيلة نكران الفضل



- 60..... رذيلة نكران الفضل
- 70..... ترك مصاحبة الحمقى
- 71..... ترك مصاحبة الحمقى
- 74..... فضل المشاورة وتعاطي الرأي
- 75..... فضل المشاورة وتعاطي الرأي
- 78..... سنة الحياة البلاء والإيذاء
- 79..... سنة الحياة البلاء والإيذاء
- 83..... خطر الفراغ والعطل
- 84..... خطر الفراغ والعطل
- 87..... فضل العلم وطلبه
- 88..... فضل العلم وطلبه
- 90..... حسن الخلق وفضله



- 91..... حسن الخلق وفضله
- 94..... خُلُقُ التَّغَاثُرِ والتَّغَاثُلِ
- 95..... خُلُقُ التَّغَاثُرِ والتَّغَاثُلِ
- 98..... المتكس عن رَحْبة ربه
- 102..... الختم
- 103..... الختم
- 104..... فهرس المحتوى

